

الفن والاخلاق

للمأستاذ حسن حسين شكرى

الفن هو أسمى مراتب التعبير بل وجد من اجل التعبير نفسه بواسطة الفن تصبح الافكار مرئية منظورة و نواة العمل الفنى هى الرغبة المتحفزة للغريزة المتأمللة الخلاقة ، و نتاج للعقل والعاطفة اللذين يهديان الفنان لزوايا الالتقاط و يرسمان له الخطوط الاولية ثم يحددان له الشكل و اللون .

و الحق انه لا يوجد شىء اسمه الجبال ولا الاخلاق البالغة حد الكمال ، ولكننا نحس و نلمس ما بين الجبال و السلوك من وشائج متينة وثيقة الارتباط بعد ما قضى على الفكرة الضيقة الافق التى تقول ان الافكار قد وجدت قبل كل شىء وهو قول — تؤيده السخافة الافلاطونية القديمة .

ولكنى أقول ان الانسان ما دام قلقا فان افكاره تخلق من البيئة المحيطة به و بذلك تكون الاشياء قد وجدت قبل الافكار لان الانطباعات التى تحدثها هذه الاشياء فى انفسنا هى كل ما نعرفه عنها اما المطلق فهو فيها واره العقل البشرى فمعرفة الانسان محدودة فيها يوجد من علاقات بين مجموع الاشياء التى نسميها الكون و تأثير هذه الاشياء علينا .

و الاشياء لا تكون جميلة الا اذا اتخذت اشكالا معينة تصاغ فى قوالها و أساليب خاصة للتعبير تقدمها و لايعتبر الشىء جميلا كذلك

الا اذا حقق لنا السعادة وهناءة الشعور و متعة الابداع الفكرى و روعة التذوق فكل جميل يبعث الحياة من خلال الفكر و الالهام و الذكريات و التجارب وتجعلنا ندرك ان كل آمال البشر فى المثل الاعلى قد تحققت .

ولاريب ان الفن هو المشكاة التى تضى الخيال و تثقفه و توقد مشعل الحياة فى الضمير فبالخيال نضع انفسنا موضع الاخرين و نحس آلامهم — فالسيد لا يضع نفسه موضع العبد و الطاغية لا يذيق نفسه مرارة السجن ولا يصفد مع ضحاياه فى الاغلال و قضاة محاكم التفتيش لم يحسوا ضرام اللهب الذى كان يلتهم الشهداء اما الرجل ذوالخيال فانه يعطى الشحاذا ما يعطيه لنفسه من حق .

فالحب و الرحمة هما ابناء الخيال . . . وما اشقى بنى الانسان ان طويت أجنحة الخيال .

شعراء الوعظ :

لقد قرأ أبأؤنا العظوات الآلية فيما كتبه ميلتون يونج و بللوک باستحسان عظيم و قد كتب هذان الشاعران الدينيان بقصد اقناع قرائهم ان العقل البشرى مصاب بالامراض مشوه بالعاهات و ان اللبخان و الضهادات الشعرية هى التى تنقى و تقوى الطبايح الاخلاقية للجنس البشرى و ليس لدى الفنان الاصيل ولا العبقرى الحق احقر من هذا الرأى الطبى .

لقد كتبت الاشعار لتكون برهانا على ان ممارسة الفضيلة هى (بوليصة التامين) للعالم الاخر و ان من يتبع ما فى هذه الاشعار من نصائح مناقفة بائسة سينال السعادة فى الآخرة و ان كان شقيا فى هذه الحياة و هكذا ادعى هولاء الكتاب ان هناك نوعا من العلاقة بين القافية و الدين و بين الشعر و الفضيلة و ان الواجب يحتم عليهم ان يلفتوا

أنظار العالم ليتجنب التردى فى هوات المتع و اللذات محددة جعلتهم
وعاظا و مبشرين ارادوا ان يظهروا للعالم انه شرير و انهم وحدهم
الملائكة الابرار .

لم يفهم هؤلاء الكتاب مدى سعادة الانسان لو ادرك ان كل
شىء فى الوجود قد خلق من أجله فالطيور لا تغرد الا له و لا تغنى الا
لاسعاده و ابهاجه و ان كل شىء فى الطبيعة يتلا'لا' و يتحرك مع
نبضات قلبه السعيد — عجز هؤلاء الشعراء عن تذوق هذا الشعور و
لم يفكروا فى هذا المرشد البهيج و لم يعترفوا الاشعار و اللوحات و
التأثيل نتاجه البشرى الذى تبناه البحر و السماء و الازهار و النجوم و
الحب و النور لم تحركهم السعادة بل كانوا غارقين فى الشعور
بمسئولية الواجب الابدى و كانت رغبتهم الجامحة ان يعلموا و يعظوا و
يبحثوا عن اخطاء و الآخرين ثم يغالون فيها و يصفون و يتمدحون
ما يمارسونه من فضائل بانفسهم .

و اصبح الفن بذلك موزعا للكتب الدينية و النشرات الاخلاقية
و مبشرا متسولا اقصى طموحه هو القضاء على كل سعادة كافرة و قد
بلغ الامر بهؤلاء الشعراء الى حد اعتبار السعداء من الناس قد نسوا
الواجب و المسؤولية فى لحظات طائشة و ان اشعارهم الوعظية لا بد
ان تنتشلهم من وهادات البؤس و الانحطاط .

ذلك هو الهيكل العظمى الذى قدموه فى الوليمة كانت خشخشة
عظامه ذات صوت ممل رتيب اثناء ما كان نذيرالهلاك ينظر اليه
فى سخرية وابتسام .

لقد وضع هؤلاء الشعراء اعمدة ضخمة فى طريق الحياة نقشوا
عليها أيادى تشير نحو القبور و احبوا رؤية الشحوب على وجنات
الشباب و هم يتناجون فى نغمات حزينة عن ضعف الشيخوخة و الصلصال

الذى لاتدب فيه الحياة و وضعوا بأيدي متحفزة جهاجم الموت امام اعين الحب و سحقوا الازهار تحت اقدامهم و ضفروا تيجانا من الشوك فوق كل جبين و بمفهوم هؤلاء الشعراء نجد السعادة تناقض الفضيلة لقد تظاهروا بالتسامي و خدعوا القارى و افتروا عليه و سببوا له القلق و الاضطراب عندما طالبوه بمقاطعة كل ألوان السعادة .

لقد أحبوا نقش ألام الموقى ليؤكدوا تفاهة الحياة البشرية و حقارة الجنس البشرى و يبالغوا فى محاسن عالم مجهول لانهم لم يعلموا سوى القليل عن القلب و العاطفة و لم يفهموا ان العاطفة هى الباعث الاول على الفضيلة و ان الانسان العاطفى هو الفاضل حقا و ان الفن ليس لديه ما يفعله للاخلاق او الفجور ، و عذره الوحيد انه خلق لنفسه .

و ان اى فنان يحاول املاء الدروس الاخلاقية لا يمكن اعتباره الا واعظا و الذى يحاول ابراز الفساد و الابتذال بالايجاء او الايماء لا يكون الا ديوثا .

فهناك فرق محدد بين الجريد و لكشف الطبيعى الذى تستلزمه طبيعة الاشكال الفنية لغايات سامية و بين الكشف المبتذل المتصنع الذى يكون دائما كشفا غير واع لا يوجد شىء احقر منه و عليه ان يتستر بأغلظ الثياب ليوارى فشله و سوقيته .

و انى لاقولها بصراحة و فخرا ان التأثيل اليونانية القديمة رغم عريتها التام ليست سوى رمز لطهارة الذيل انها صورة حية لنجمة الصباح المرتعشة فى قطرات الندى المعطار .

ماهى الاخلاق ؟

اما عن الاخلاق فنقول انها الملازمة بين التصرف و الظروف انها ايقاع نغمى للسلوك .

فالتمثال العظيم هو ايقاع التناسب و اللوحة البديعة هي الشكل و اللون و عظمة التمثال في انه لا يوحى بالصنعة فحسب بل يبدو و كأنه خلق للبهجة و السرور و ابداع اللوحة انها تبدد السامة و الملل و لا تشعر بما بذل فيها من جهد بل كلما كانت اعظم و اسمى كلما كانت اسهل و ابسط و هكذا الحياة كلما كانت عظيمة كلما كانت سهلة بسيطة ليس فيها فكرة الالتزام و المسؤولية و لواجب الابدى التى تخلق فى الانسان الوانا من الركود .

و خلاصة القول ان الفنان الذى يحاول اسلاء الدروس الاخلاقية يصبح مجرد صانع لا يدرك من اسرار الفن شيئا و العبقري اذا فعل ذلك لا بد ان يفقد حرته فى التعبير .

فروح الفنان يجب ان يتحرك وفقا للتناسب النغمى و ايقاعاته و ان يتأيل بلا وعى مع انعام (سيمفونية الكون) .

فلا يتصور انسان ان عطاء الفنانين الذين نحتوا التماثيل القديمة قد قصدوا من وراء ذلك تعليم شباب الاغريق طاعة و الديهم أو ان (مايكل انجلو) قد رسم لوحاته السوقية نوعاما ، كلوحة (يوم الحساب) لاصلاح اللصوص الايطاليين و لكن الامر بكل احتمالاته ان الذين استخدموه قد اختاروا له هذ الموضوع و رغم ذلك فان (مايكل) قد عالج هذه اللوحات معالجة فنية بحتة دون قصد التأثير الاخلاقى ولا على القساوسة انفسهم .

و من المؤكد كذلك ان (كوروت) قد رسم المناظر الطبيعية الشاعرة لأكواخ و اشجار الزان الحزينة و اشجار الكروم الجرداء و السماء الصافية و الجدران الناصعة البياض و الغدران المهادئة و القطعان المبهجة و الحقول الرقطاء يظللها الضياء و السماء مخنية عليها كصدر أم حنون قد رسم ذلك كله دون ان يفكر مرة واحدة فى

الوصايا العشر .

و أظن أنا الان ادركنا الفرق بين انتاج الفنان الاخلاق الهادف الى اسلاء الدروس و انتاج العبرى الاصيل انه كالفرق بين الفضيلة و تكلف الحشمة تماما .

كما ان هناك روائيين يحاولون تجسيد ما يسمونه باغتباط (حقائق اخلاقية) ولا يمكن ان نعتبرهم فنانيين لانهم يخلقون نوعين من الشخصيات تقليدية جامدة و (كاريكاتورية) تافهة و الاولى لم تعش ابدا و الثانية لن تقدر لها الحياة أما الروائي الاصيل فشخصياته دائما اناس طبيعيين فيهم من التناقض و التباين مالا يمكن فصله عن المجتمع البشرى أو الحياة .

فالفنان العظيم يوجه مرآته للطبيعة فتعكس الحقيقة المطلقة بعكس الكتاب الاخلاقيين و غير الاخلاقيين الذين تكون لهم دائما اهداف اخرى الى جانب الهدف الفنى و هم لا يستعملون المرايا المقعرة و المجذبة و النتيجة ان تكون اشكالهم شاذة مشوهة فظيعة و محلية المستوى أما العباقرة الاصلاء فأشكالهم و مضامينهم عالمية المستوى و كلماتهم و اعمالهم تنبض فى توافق تام مع جزر الاشياء و مدها العظيم فهم يكتبون لكل الاجناس و لكل الازمان .

و لقد حاول آلاف من المصلحين الاخلاقيين تحطيم العواطف البشرية ولكنهم حققوا هذا الهدف جعلوا الحياة عبئا ثقيلا ليس فيها سوى رغبة و حميدة شئ رغبة الفناء و الانقراض بينما يهدف الفن الاصيل باعماله السامية الى اشعال العاطفة و تحريكها و منحها النغم و اللون و نكهة الحياة و هو بذلك يثقيها و يسموها الى آفاق بعيدة الاماد ليصل بها الى ذروة الحياة فالحياة بلا فن ليست سوى سجن و زنايات فان وجد الفن آستدت جدرانها و ارتفعت سقوفها حتى تصير معبدا شامخ البنيان .

كيف توجد الاعمال الفنية :

من المؤكد ان الاعمال الفنية الاصيلة توجد بلا توجيه و الكامل منها يلهمنا دون شك كمال السلوك كما يعامنا (المهاروموني) دون قصد درس التناسب في الحياة فالطائر يغني وليس له هدف اخلاقي ولكن تأثيره يهذب الاخلاق و يقوم السلوك و الجميل في الطبيعة يعلم التذوق و الرحمة فهو جميل دون اعتبار لاي شئ آخر فالازهار لا تحتل اذا حملت قلوبها الرقيقة أو احمرارها الجذاب شعارات تقول (ان الديق تاكل الاطفال سيء الخلق و ان الامانة أحسن السلوك) فالفن يخلق البيئة الحلوة اللبقة التي تنمو فيها الفضيلة بلا وعى أو قصد فالمطر لا يعظ الحبوب و النور لا يضع القواعد للكروم و الازهار و القلوب البشرية تهفو للكمال و ترق بالشجن و الصفاء و الكون هو قاموس العقل و العباقرة و حدهم الذين يكتشفون ما في هذا القاموس من متشابهات و متناقضات فلغة هذا القاموس ليست سوى كثرة من الصور و كل كلمة منها هي عمل من اعمال الفن فالصورة تمثل بصوت و الصوت يمثل بعلامة و العلامة لا تعطي الصورة فحسب بل تعطي صورة شئ ما في مظاهر الطبيعة و صورة شئ ما في العقل و بهذه الكلمات التي كانت ذات مرة صوراً توجد صور اخرى و اللوحات البديعة و التماثيل المعجزة قد رسمت و نحتت بالكلمات و رغم مامر عليها من زمن سحيق ما زالت حتى اليوم و انها بنت اللحظة الاولى التي سقطت فيها من أول شفة بشرية فبينيلوب ما زالت تنقض غزلها ثم تغزل وقوس (اوليس) ما زال منحنيا و مساهمه متحفزة للانطلاق و كورديليا ما زالت دموعها تذرف حتى الساعة .

و انا لنجد اعظم معرض في العالم في كتب شكسبير فلوحات الفاتيكان و اللوفر لتشعب و تتجدد ان قورنت بأعمال شكسبير ذات اللون المتوهج و العاطفة المتأججة التي جعلتها في أعلى درجات الحياة

و كل شىء الا الحقيقة يحتاج الى ارتداء قناع فالارواح الحقيرة تنجل من الطبيعة كمتكف الحشمة الذى يدعى ان لديه من العواطف ما لا يشعر به على الاطلاق .

و الشعر الذى يتجاهل العواطف البشرية كالترعة الهادئة التى لاتفيض على الضفاف فأى تطرف للعاطفة ينساب من حواجزها بطيئا و بلا خسائر و هذا الشعر يعتبر الحب مذنبا مثله مثل الفن الاخلاقى تماما الذى ينحت و يرسم الاقدام و الوجوه و الخرق و فى نفس الوقت يعتبر رسم الجسم البشرى أو نحته بذاعة و فحشا ينبغى ستره و بالضرورة يصبح الاعتدال شكلا اخلاقيا لان فيه من التبجيج ما يدعو الى الفضيلة .

ما هو الفن ؟

و اظن ان الشك لا يتطرق الى انسان — ان قلنا ان الفن خلق و مزج و كشف انه ابلغ بيان للافكار و العاطفة و الحب و الادراك انه اسمى و مسائل التعبير للتاريخ و النبوة — انه يتيح لنا النظر الى الروح بلا قناع لنسبر غور اعماق العاطفة و نفهم ابعاد الحب .

و بمقارنة طاقة العقل البشرى و امكانياته بمظاهر الطبيعة المختلفة سندهب اعظم الدهش فالانطباعات التى تولدها لدينا رؤية الجبال و البحار و النجوم لا تهز اعماقنا كما تهزها موسيقى فاجنر لانها ليست فى عظمتها بل ان الكواكب نفسها لتصغر عندما نقرأ هاملت أو لير .

وما هى البحار و النجوم الى جانب البطولة الانسانية التى تعتبر الالم و الموت لا شىء وما هى البحار و النجوم الى جانب القلوب البشرية المفعمة بالعواطف و الاحساس وما هو المحجر باكملة ان قورن بتمثال عظيم .

فالفن ممدن البشر لانه يضىء لهم الطريق و يطور لهم الحياة و

يقويها و يجعلها أكثر نبلا فهو يتعامل مع الجبال و العاطفة و المثل الاعلى لكل شىء انه نتاج القلب و ليكون اعظم فلا بد ان يكون على وفاق تام مع تجارب الانسانية و آمالها و مخاوفها ان يكون مع امكانيات البشر .

فلم يحرص انسان ان يرسم قصرا و ليس في رسم تلك الصورة شىء يمس القلب بل انها لتذكره بمسئولية السجن التقليدى و تحي اليه بالجمود و السامة و الكلال بينما صورة كوخ صغير تظلمه كرمة او بيت متواضع تسقفه السعادة بحياته البسيطة وضوء شمسه الطبيعية و ظلالها و اشجاره البائلة الدانية الثار وطين نخله وسط ازهار هى الشعر بذاته انها اتساما في صحرا الحياة .

فالسيدة العظيمة التى ترفل في المخمل و تزدهى بالجواهر هى صورة فقيرة لخلو حياتها من الحرية الكافية انها مكرهة بعيدة جدا عن بساطة السعادة فافكارها معقدة كالمسائل الرياضية تماما و في كل الفنون الاصيلة لابد ان يوجد شىء من الانطلاق و الحرية و العمق و في كل الفنانين لابد ان تجد شيئا من الاغراب هو ما يقال عنه النبوغ .

لقد قدس الفن الموجود جمال المرأة فكل تمثال اغريقي يتوسل باتخاذ صور الامهات و الاخوات و من هذه التماثيل المرمزية تناسب النغمات الموسيقية التى ملأت قلب الانسان بالرقة و التقديس و العبادة و اضرمت نار الاعجاب و الحب و الوقار فتمثال (فينووس دى ميلو) على ما به من تشويه لاشك يرمز الى سمو جنسنا البشرى انه الفكرة السامية للمرأة السامية انه لحن في الرخام فكل خطوطه تتلاقى في انسجام فالعيون مليئة بافكار الحب و الصدر يحلم بطفل .

هذا هو النبوغ و روحه الذى يتخلى عن كل شىء روحه الذى

يتحرك مع ارتفاعات الموج و انخفاضات روحه الذى لايعترف
بالمسئولية و يحطم قيود العلة و المعلول ليطلق الروح و ينس الحدود
حتى يخضع الطبيعة لارادته ليخلق المثل الاعلى من (سيمفونية
الكون) .

و كل عقل هو معرض للفن و كل روح هو فنان عظيم فاللوحات
و التماثيل التى تزدان بها الجدران و المحاريب فى العالم و الصفحات
الادريية المتلاثة قد اخذت اصلا من معارض خاصة للعقل البشرى .

و روح الفنان هو الذى يقارن صور عقله الذاتى بالصور الهاخوذة
من معارض الآخرين و يمعن فى رؤيتها و يتعمق ليتتقى منها ما هو
اقرب الى الكمال ليرسم لوحات جديدة و ينحت تماثيل جديدة و بهذا
يخلق المثل الاعلى .

الذى يعبر عن الرغبة و الشوق و النشوة و يضع الحب و
الامل و البطولة و الانتصار فى الرخام و المرمر و ينقش الاحلام ،
و الذكريات بالكلمات و يصور لقاء الفجر و ذروة المجد و ورقة التلاؤ
و عظمة الليل و سره بالاصوات و يجعل ما خفى من اسرار الطبيعة
تحت البصر و اللمس و يرصع الاشياء العادية فى الارض بلآلىء العقل . . .
هذا هو الفن .

